جذور التفكيكية وثنائية الكلام والكتابة عند جاك دريدا

د. علي أحمد علي الشارف * - قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية ـ كلية الآداب والعلوم - قصر الأخيار - جامعة المرقب.
aaesharif@elmergib.edu.ly

تاريخ الاستلام 17 / 10 / 2024م تاريخ القبول 3 /7 / 2025م

The Roots of Deconstruction and the Duality of Speech and Writing in Jacques Derrida

Dr. * Ali Ahmed Ali Al-Sharif
Department of Arabic Language and Islamic Studies – Faculty of Arts and Sciences – Qasr Al-Akhyar – University of Al-Marqab.

Abstract
In the midst of civilizational immersion, terminological surge and variation in creative and literary evaluation tastes, the literary and critical arena has undergone a celebration of theoretical diversity and evaluative behaviour. Disintegration is part of this cultural knee. We find it to have provoked critical and intellectual fluctuations between a receptor, a celebrated and a rejectionist. The conventional from which they are indignant and regarded as destructive, ridiculous and exciting, as we hardly find a European intellectual centre in which there is no controversy about the value of this "deconstructive" approach to criticism, as it raises the right problem of celebrating either: speech or writing?.

الملخص:

في خضم الغمرة الحضارية والطفرة المصطلحية والتباين في الأذواق الإبداعية والتقييمية الأدبية خضعت الساحة الأدبية والنقدية إلى الاحتفاء بالتنوع التنظيري والمسلك التقييمي، فكانت التفكيكية تمثل جانبا من هذا الركب الحضاري، إذ نجدها قد أثارت تقلبات نقدية وفكرية بين متقبل ومحتفٍ بها ورافض مناهض لها، متفقين في الحماس ومتباينين في أي خانة ينضوون تحتها؟ التقليدي الذي يبدون سخطهم منه ويعدونه مدمرا وسخيفا وآخر تجديدي مثير، إذ لا نكاد نجد مركزا فكريا أوروبيا تنعدم فيه الجدلية حول قيمة هذا المنهج (التفكيكي) في النقد، بما أثاره من إشكالية أحقية الاحتفاء بإيهما: الكلام أو الكتابة؟

تقديم:

بما أن جاك دريدا أقر مبدأ التمركز حول العقل ولجأ إلى مبدأ هدم فلسفة اللجوء إلى ما وراء العقل، إذ إن العقل يلعب دورا مهما في فهم العالم واحتواء الأفكار وتطوير

المعرفة حتى في الثقافة العربية، حيث ساهم العلماء العرب بهذه النظرة بالسير نحو تطوير العلوم المختلفة كالطب والرياضيات والفلك... وكذلك الأدب ونقده، وصولا إلى التأويل في بعض المدارس الفكرية والتي تنتهج التأويل العقلاني وغير العقلاني متأثرين بالفكر والفلسفة اليونانية فاستخدموا البلاغة والفصاحة لتعبر عن الأفكار والمشاعر والنقد للدحض والهدم والبناء حتى وصلوا إلى نقد النقد، ومن ذلك فقد عيب على جاك دريدا افتقار فكرته إلى تمام المنهجية؛ لأنها يصعب تصنيفها وفق اتجاهات الفكر الإنساني المعروفة، فتقع في حيرة المسلك بين الاتجاه العقلي (الميتافيزيقي) وبين الاتجاه التجريبي (العلمي)، باغيا هدم أسطورة العقل التي تقوم عليها نظرية المعرفة الإنسانية باعتبارها تمثل تجسيدا لعلاقة العقل بالعالم أو الذات بالموضوع.

فإذا كان ذلك ما سعى إليه جاك دريدا، فما البديل الفلسفي الذي يريد بثه محل مركزية العقل التي يسعى إلى هدمها في تفكيكيته، وهل اتسم الفلاسفة والنقاد والأدباء العرب بمنظور نقدي يؤكد على السياق والثقافة في فهم المعاني والنصوص والأفكار التي يمكن أن ينظر إليها كجذور للتفكيكية؟، ووفق رؤية جاك دريدا التفكيكية: ما هي عوامل تجاوز الحداثة بمقولاتها المركزية منذ أرسطو وصولا إلى الخطاب النقدي والفلسفي المعاصر؟، وما دافعه في مهاجمة الميتافيزيقيا الغربية التي تفرض وجود حقائق ثابتة ومركزية، ويؤكد على أن اللغة لا تعكس هذه الحقائق؛ بل هي بناء اجتماعي يخضع للتغيير والتأويل، وهل يعكس مفهوم الاختلاف الذي أقره عبد القاهر الجرجاني اصطلاحا وإجراءً مفهوم التفكيكية في قالب ما بعد الحداثة؟

إن الطرح الأولي المتمثل في التقديم للعنوان قيد البحث والذي قادنا إلى التساؤلات السابقة إنما يمثل فرضية البحث التي يقوم عليها، والتي نسعى إلى إيجاد إجابة شافية جامعة مانعة في مضمون التدرج في العمل الذي بين أيدينا، والذي التزمت فيه المنهج الوصفي في تتبع المراد وتحصيل النتائج المبتغاة في لغة علمية سليمة ورصينة.

حتى إن ثنائية الكلام والكتابة لم تكف عن التغلغل والاستيطان في النصوص وتوليد الثنائيات المتعارضة وتفضيل طرف منها على الآخر، لنيل سبق هدم الميتافيزيقيا وكذلك تقويض المنطق الذي يحكم النص كونه نصا.

جذور التفكيكية حسب وجهة جاك دريدا:

تنوعت مناهج النقد الأدبي في العصر الحديث بين متطلبات التنوع الثقافي والاستقدار الأدبي، عامدة إلى مواكبة ركب الحضارة، فكان مما نتج عن تلك المواكبة: البنيوية التي تعد أهم حركة أدبية في النقد الأدبي الحديث، فضلا عن كونها الحركة الأكثر إثارة للجدل كونها تركز على دراسة البنى والأنماط التي تشكل النصوص

والمعاني لمعرفة العلاقات بين العناصر المختلفة في النص، كالعلاقات بين الكلمات والجمل، لتعقبها نظرة هادمة وسمت بالتفكيكية المائلة إلى نسفه حسب نظرة جاك دريدا حين فعلت فعلتها في إثارة الإعجاب واستظهار النفور، كل ذلك حاصل بما أوجده أسلوب دريدا المتسم بإثارة الحيرة حين أجرى نمطا من الآراء النقدية فيها متمثلة في أنه نقل جزءا من بحثه من اللغة إلى الكتابة، وهو ما يعرف بالنص المكتوب أو المطبوع، وكذلك تصوره النص بطريقة محددة غير اعتيادية؛ إذ ذهبت البنيوية إلى تغليب الكلام الشفهي التخاطبي قبل التوصل إلى اختراع الكتابة الصوتية الأبجدية، وهذا هو المعتمد في شتى نظريات تأصيل نشأة الكتابة؛ إلا أن جاك دريدا حين أبدى رأيه في التفكيكية قلب التراتبية التاريخية المعتمدة عند سالفيه ممن خاضوا في ذات الأمر حين جعل الأسبقية والأولوية بين الكلام الشفاهي اللغوي والكتابة الأبجدية، حيث غلّب وفضّل الكتابة على التخاطب الشفهي، علما بأن دريدا لم يقصد بالكتابة المدونة الأبجدية للأفكار وإنما هي الكتابة الأم التي لم تعد موجودة ولكن ألزمنا بابتداعها على اعتبار أن الصوت يعطي للكلام المباشر الأفضلية على حساب الكتابة، فهو يمثل علاقة جوهرية بالجمهور، ومن هذا المنطلق وثق العرب الأوائل بالكلام حين أحسوا بأن الصورة كلما زادت من ثرثرتها وتغلغلها واقتحامها لحياة المتخاطبين زاد التعلق بالكلمة في القراءة والاستماع؛ ليس بسبب قدسية الكلام إنما بسبب عملية التواتر اللفظي المتعاقبة جيلا بعد جيل وعلى هذا فالكلام عكس الكتابة؛ لأنه وحده الذي يستطيع وبصفة مباشرة أن يتدارك ذاته ويصحح نفسه، فهو بيّنة بذاته، فلا يحتاج إلى إعانة خارجية ولا يبرز بغيره لاكتمال سمته واجتماع حجته، وهو كما أشار أفلاطون: لا يحتاج إلى سواه مثلما يحتاج اللقيط إلى أب.

رؤية جاك دريدا التفكيكية للكتابة والكلام:

بعد إقرار البنيوية بأن المعنى يمكن تحديده من خلال دراسة البنى رأت التفكيكية أن المعنى يتأثر بالسياق والزمن مركزة على الاختلاف والتنوع تطورت النزعة الحداثية بسبب الجدل القائم بينهما في النقد الأدبي من خلال تتبع تقنيات جديدة نجدها في ميل جاك دريدا ـــ باعتباره الأب الروحي الفاتق للجدلية بين الكلام والكتابة والاسم الأكثر اقترانا بالتفكيكية ـــ إلى تكريس مفهوم الكتابة واستظهار معالمها ومفاهيمها ومعانيها في صورة الخط والحرف، لا في صورة الحرفة في ذاتها ولكن في صورة الصوت الذي تختزله تستهويه عبارة: العبرة في النطق لا بالخط، أي أنه يؤكد على ما هو مسجل مقابل ما هو منطوق، ومن ذلك المفهوم الذي رآه جاك دريدا الذي أقر فيه بميل كفة الحداثة إلى تهميش كفة الكتابة منذ زمن أفلاطون وصولا إلى ليفي شتراوس، في محاولة منه ـــ أثبتها ـ لتمييز ما رآه حاضرا في الفكر الغربي بين الكتابة الأبجدية بسمتها الأعلى

وأصناف أخرى من الكتابة التصويرية أو الرمزية، مستندا في تلك الرؤية على مبدأ أولوية الكلام على الكتابة إذ بالتأصيل العربي لها كانت الكتابة عربيا حروفا مرسومة بدون نقط، أي غير مستقرة على الهيئة والصفة والكمال الموجودة عليه الآن وهي موثوقة أخذت عن طريق التواتر اللفظي (الكلام) ومن ذلك قيل بأن اللغة كشاف ومسبار الشعوب، وأسند دريدا رؤيته لمبدأ أولوية الكلام على الكتابة جاءت حين ربط الدلالة بالكلام (الصوت) واختزال الوجود إلى الحضور ليحتل بذلك الحضور في الكتابة مكانة ثانوية، وهذا ما أدى إلى تكريس المركزية العرقية الأوروبية، وأطلق على هذا النزوع وسم: ميتافيزيقيا الصوت بسيادة الكلام على حساب الكتابة.

"إن الإشكالية التي خصها جاك دريدا بالاهتمام والنقاش والتي طرح آراءه حولها في ثلاثة كتب نشرت سنة 1967م وسمت بمسميات: الكلام والظواهر، حول علم القواعد، الكتابة والاختلاف، ارتكز في مضمونها ومجمل محتواها إلى نفي التمركز الغالب على الثقافة العربية والذي أقر فيه دريدا نفي الحضور حين رأى فيه أنه مدلول متجاوز؛ لأنه أراد من هجومه هذا إبطال سكونية الفكرة واجتثاث الثبوتية المطلقة وديمومتها كالخير والشر أو القوة والضعف...، ومن تلك الرؤية ذهب إلى تفضيل الكلام على الكتابة منطلق الحضور وانعدامه، مؤسسا عليه استراتيجيته في القراءة والتأويل، ليخلص إلى أن الكتابة وعاء لشحن وحدات مُعَدّة سلفا؛ بل هي صيغة لإنتاج هذه الوحدات وابتكارها" (بتصرف: بسام قطوس، استراتيجيات القراءة ـ التأصيل والإجراء النقدي ـ ص137/ 138).

بالوقوف عند ما سبق ذكره يتجلى للمتتبع أن جاك دريدا يعلن رفضه للنظرية البنيوية، على اعتبار أن التفكيكيين يرون تعدد المعنى مطلقا وأنه محل نزاع، فلا يتحدد معنى نهائي أو ثابت للنص، تشغلهم الثغرات والتناقضات في النصوص ـ وهذه جذوة التطور الحضاري عند الغرب القائمة على بناء كل جديد على أنقاض كل فكر تنظيري سابق وكذلك المسلك العملي التطبيقي ـ التي ترجح أسبقية الكلام على الكتابة استنادا إلى المبدأ المختمر لديه إذ "إن اشتقاق الكتابة المزعوم من الشفاهة مهما كان حقيقيا ومهما كان عظيما، لم يكن ممكنا إلا بشرط واحد هو: اللغة الأصلية الطبيعية لم توجد بتاتا، أو لم تمسها الكتابة ولم تلمسها، وأنها كانت كتابة في حد ذاتها، وهي الكتابة الأم التي نريد أن نبين ضرورتها ونحدد مفهومها" (سيلفان أورو، وآخران، فلسفة اللغة، ص113)

وهو بهذا الرأي المسرود يسلط الأنظار على العلاقة العميقة بين الكتابة واللغة ويقر بمفهوم أن الكلام مشتق من الكتابة بدلا من أن تكون الكتابة مشتقة من الكلام، وأبدى فكرة وجود مثال أولي للكتابة تفرضه الضرورة، فالكتابة باعتبارها وسيلة التواصل تستند استنادا كبيرا على المشافهة أو الحكي، معتمدة على توفر الأساس للرموز

والعلامات المستخدمة في الكتابة، وفي حال انعدام اللغة ينتفي وجود أساس لتشفير الأفكار والمفاهيم في نمط مخطوط كتابة، إذ لا يتصور الكتابة غير نموذج تقليدي يعبر عنه بالصور الحسية المرئية والصورية، وأن الطبيعة لا يمكن أن تخلو من ممارسة كتابة من نوع ما.

لقد تجاوزت جدلية الثنائية بين الكلام والكتابة أيهما الأجدر والأحق بالاحتفاء به: السمع أو البصر؟ لتصب في قالب الاستيعاب والادراك وسمات التفاعل، ومن هذا المنطلق تبلورت المقالة الفلسفية: تكلم حتى أراك، وعلى منوالها استحدثت طريقة برايل في الكتابة والتي سحرت بالكلمة وضاهت نظيراتها المألوفة من مكتوبات الكلام وفتقت حقول الدلالات والتخيلات.

حتى إن مهنتي الوراقة والنسخ اللتان ألفتا عن العرب وبهما أثبتت الأفكار والكلام في حنايا أشعارهم ومتون مؤلفاتهم وبطون مقالاتهم وما حوته مقامات الحريري وقصص ألف ليلة وليلة ـ على اعتبار أن الترجمة باب للكتابة وتنقل المعاني بها ـ وما جاراهما يؤكد ويوثق الصلة بين الدلالة والتصاقها بالحرف المكتوب.

إن تفضيل جاك دريدا الكلام على الكتابة ليس بأمر وليد اللحظة، إنما هو امتشاق لجذور فكرة فلسفية إغريقية قديمة عندما جنح الإغريق إلى تصوير المشاهد أكثر من تدوينها وكتابتها على الصورة التي يراها دريدا فكرهوا الكتابة " بسبب خشيتهم من قوتها في تدمير الحقيقة الفلسفية التي يرون أنها حقيقة نفسية خالصة وشفافة، ولا يعبر عنها إلا بالحديث الذاتي أو الحديث المباشر مع الآخرين، ولما كانت الكتابة لا تذعن لهذا التصور فهي تجسد الحقيقة بصور مرئية، إذ ظهر وكأنها تختزلها إلى مرتبة أقل سموا مما هي عليه في النفس، وذهب هؤلاء الفلاسفة إلى أن تدوين الحقيقة بالكتابة هو تدنيس لها، وكان سقراط يرفض رفضا باتا أن تدون فلسفته؛ لأن الحقيقة فيها لا يمكن أن يحتويها جلد حيوان أو حجر جامد بدل النفس الزكية الطاهرة، وجاراه أفلاطون في اعتبارها بمثابة دواء له من الضرر على الذاكرة أكثر مما له من الفائدة؛ لأنه يقود إلى النسيان" (عبد الله إبراهيم، مقال: علم الكتابة، جريدة الرياض).

إن لمحة في حياة الأعراب الجاهليين تبين ما أُثِرَ عنهم كونهم أصحاب ثقافة سمعية شفهية تعظم الكلمة المنطوقة وتجلها أكثر من الصورة المنقوشة ما يؤكده تدفق الصور وغزارتها في إرثهم الشعري، حتى إننا نجد الجانب المبهر في الكتابة عندهم يتجاوز قصدية المعنى باغيا القيمة البصرية، ومع ذلك فإن بساطة الثقافة البصرية في بيئتهم البدوية الصحراوية القاحلة رجح معه الجانب المنطوق على الجانب المنظور بما فرضته تلك البيئة التقشفية الخالية من سمات المعمار وملامح البساتين ومجسمات التماثيل.

إن جاك دريدا لا يرى أن العلاقة بين الكلمة ودلالتها خطأ وإنما ينتقد أن يكون للكلمة دلالة معروفة، إذ إن نظرته لا تعدو كونها تمرد ضد الميتافيزيقيا، يبغي بها إعادة قراءة النصوص الفلسفية والمعرفية والثقافية والإبداعية المتنوعة.

يبحث دريدا عن المنطوق أو أفضلية الكلام على الحضور، ساعيا إلى قلب المعنى وإسقاطه على اللغة، ويقر بخطورة استعارة الألفاظ أو نسخها كونها تفرض نصا موجودا في الآن، فيحتم جمودية النص وانعدام الانفعالية فيه، حاله في ذلك حال التماثيل والنقوشات الحجرية...، وعلى هذا فالتفكيك نمط لقراءة النصوص يقر بقصورها في تملك أساس كاف تقوم عليه القراءة، فالقارئ يحدث عنده المعنى ويحدثه، وكل شيء يبدأ بالقارئ، وتجربته التي لا يوجد قبل حدوثها شيء، فهو يفكك النص ويعيد بناءه وفق آليات تفكيره.

دريدا في التفكيكية وفق ما سبق يقودنا إلى هدم الميتافيزيقيا في قراءة النصوص، مجتثا أصول الأفكار وسكونيتها وشروطها التاريخية، سعيا إلى الاستيطان في النصوص وإنتاج الثنائيات المتعارضة، كالدال والمدلول، الداخل والخارج، المثال والواقع، الشر والخير، الشمال والجنوب، الكبير والصغير...، ويشتغل عليها عمليا.

وكما أنه ذهب إلى السعي لكسر الثنائيات الميتافيزيقية وإقرار جوهر المتردد اللايقيني في مسمى: لا هذا ولا ذاك، وهو ذات التصور الذي قدمه بعض الفلاسفة والمتصوفون من العرب حين قدموا رؤى عميقة لكسر الثنائيات المتعارضة في الفكر الإسلامي فيما أطلق عليه بالوحدة في التنوع، أو الوحدة في الاختلاف، همهم البحث في كيفية تأثير اللغة في تنوع فهم الواقع كما في ثنائية الدال والمدلول وكيف يمكن أن تتجاوز الدوال القيود اللغوية لتعبر عن الحقائق العميقة، ومن ذلك استعمال اللفظ الواحد بمعان مختلفة فيما استقر عليه رأي الإمام عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم، كما أن استخدام التعابير البلاغية المتنوعة والمتعددة كالاستعارة والكناية والمجاز وغيرها من شأنه أن يقود إلى أغراض بعيدة يفهمهما من تشبع بها تسهم في توسيع معاني الكلمات وإعطائها أبعادا جديدة تسمح للشعراء والمؤلفين عامة بتحقيق مستويات عديدة من المعنى في كل نص يتم إنتاجه، مما يجعل المعاني غير مستقرة وأن إمكانية اختلاف طرق فهمها كبير وصولا إلى الهدف الذي ينشده جاك دريدا.

كل ما مرّ بنا يعكس خلفية دريدا الدينية التي انبثقت منها تلك الأفكار، إذ نقف عند تعليق دريدا على الأساس الميتافيزيقي الذي ارتكز عليه مفهومه للكلمة المنطوقة ويُظْهِرُ كيف يمكن أن تكون اللغة بعيدة عن الثبات والاستقرار وبيان إمكانية انهيار المعاني المفترضة حين يقول: " إن فهم الله هو الاسم الآخر للوغوس logos بوصفه حاضرا

ذاتيا، ومن الممكن أن يكون غير متناهٍ وحاضر ذاتيا، كما يمكن توليده من خلال الصوت بوصفه صفة ذاتية، إنه ترتيب الدال الذي يمكن للذات من خلاله أن تستعير من خارج ذاتها الدال الذي تبعثه وتؤثر فيه في الوقت نفسه، وكذا الحال مع تجربة الصوت، إذ تحيا هذه التجربة وتعلن عن نفسها بوصفها إقصاء للكتابة، بمعنى آخر: إقصاء للدال الخارجي المحسوس المكاني الذي يعيق الحضور الذاتي".(جاك دريدا، في علم الكتابة، ص 13)

إن نفض الحضارة الحديثة لأثواب الموروث أبان الفكر الجديد المعارض لفكرة اللاهوت ومبدأ إلزامه الالتفاف حول مركز عقائدي لا يقبل النقاش، الأمر الذي دفع الثائرين إلى مراجعة القديم ليتميز الجديد، ومن ذلك النظرة اللغوية التي تولدت منها المسارات الجديدة انطلاقا من الشكلانية الروسية فالبنيوية فالتفكيكية فالشكلانية وما تلا كل ذلك...

فكانت رؤية جاك دريدا فاضحة للخطاب الغربي الذي استكان للاهوت، فتجرأ للتخلص من المركزية القامعة التي كانت تتحكم في قيم وجمال ووعي البشرية حسب رأيه، وكأنه أحس بعرق العربية ينبض من أصوله الجزائرية ولكنه ملزم بالانصياع لموطنه (البرتغال)، وأن أوروبا لم تتقدم إلا بعد أن تجردت من مبدأ القدسية الدينية الطاغي عليها قرونا عدة، فتجرد من العربية دما وفكرا بأن استهوته الحداثة الغربية سائرا على شاكلتها فكرا ودما.

فبهذا ينفي دريدا أن يكون للكلمة دلالة معروفة، إذ أقرّ باقتران " نسق اللغة بالكتابة الأبجدية الصوتية، ذلك النسق الذي تولدت فيه الميتافيزيقيا المتمركزة حول اللوغوس، الذي تحدد معنى الكينونة بأنه الحضور، لقد كان هذا التمركز حول اللوغوس مطوقا دائما ومضطهدا لأسباب بعيدة تماما عن التأمل في أصل الكتابة والمكانة التي تحتلها..." (جاك دريدا، في علم الكتابة، ص 43)، ولعل هذا الرأي منبثق من الأبجدية اللاتينية التي يتكلمها ويعيش في وسط متكلميها، التي تعتمد على تمثيل الأصوات اللغوية برموز مكتوبة بعد أن كانت لغة واحد فتحولت اللهجات فيها إلى لغات حية.

إن خلفية دريدا الدينية التي تعد الرافد الأسمى للمنهج التفكيكي وما يؤيدها من ألفاظ طغت في الساحة التفكيكية استعمالا واحتجاجا ما دفعت دريدا إلى القول " بوجود خلخلة في المثالية الدينية المتمثلة في سيطرة اللوغوس، وهي كلمة في الكتاب المقدس كما ذكر دريدا ـــ تعكس العقل الإلهي ـــ وهو مصطلح يستخدمه بديلا عن مسمى التمركز حول الصوت، في إشارة منه إلى عادات تفكيرية وقواعد فكرية تستند إلى مبدأ ميتافيزيقيا الحضور الذي هو اعتقاد بوجود مركز خارج النص واللغة يكون صحيحا غير مطعون في حقيقته". (محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة، ص187)

مدمرا فكرة الأصل الثابت الواحد ومؤكدا على انعدام الغائية والفوقية والاستعلاء مقرا باللامركزية، باغيا من ذلك فضح الخطاب الغربي الذي سيطرت عليه العقلية الدينية ـ كما أشرت سالفا ـ بخلاف ما استقر عليه الأمر عند علماء العرب وخاصة في مجال اللغة والنحو والبلاغة حين قدموا أفكارا واسعة حول طبيعة ما سبق ذكره وتطوره في سياق تدمير فكرة الأصل الثابت في اللغة وجمود المعاني والتصاقها بالقالب اللفظي من خلال مبدأ التطور اللغوي والعلوم بصفة عامة وكذلك الاختلافات الدلالية للكلمة في العربية حسب السياق، مع عدم إغفال التأثيرات الثقافية والتفاعلات الاجتماعية المصاحبة، وصولا إلى النظريات اللغوية ـ كما عند سيبويه والزمخشري...ـ والبلاغية والنقدية وغيرها.

ويعد جاك دريدا بذلك رافضا لفكرة الغرب الممجدة للحضور على الغياب، ومؤكدا على أن الكلام مجرد وسيط تتلاشى دواله بمجرد النطق به، وهذا يعكس الكتابة التي تحافظ على الدوال فيما تحمله من دلالات وإشارات مادية يمكن ممارستها حتى وإن غاب الباث أو المتكلم، وهذا يمثل جانبا من اهتمام العرب، فبالرجوع إلى صنيع أبي الأسود الدؤلي الذي اعتمد تدوين المسموع من كلام العرب بعد أن فشى اللحن في العربية عندما اختلطوا بالأعاجم لضبط اللغة نحوا وكتابة، بتكليف من الأمير، يتضح الاهتمام بالتفريق بين صور الحروف كالدال والذال والسين والشين...، ليزول اللبس من الحروف المتشابهة، وكذلك مثلثات قطرب...

ولا يعدو مفهوم الكتابة عند دريدا أن يتجاوز مفهوم اللغة، متوجها بقصديته إلى أن الكتابة علم قائم بذاته، واستنادا إلى ما خلص له هذا التسلسل في الطرح السالف إلى أن دريدا يميز بين نوعين من الكتابة نجملهما في الآتي:

النوع الأول: كتابة قائمة على ما أسماه بالتمركز المنطقي، أي أن المعنى وظيفة المتحدث وسابق على اللغة التي لا تخرج في فهمه عن كونها وسيلة ناقلة من الموقع الأصل إلى الموقع الآخر، أيًّا كان هذا الموقع.

أما النوع الثاني: فهو المعتمد على الضوابط النحوية أو ما يجدر بأن يسمى بالكتابة في مرحلة ما بعد البنيوية، كونه رأى في البنيوية الباب الفسيح لكسر الرتابة الحضارية الجامدة واقتحام آفاق التفكيكية.

إن ثورة دريدا ليست ثورة على ثنائية الكلام والكتابة بقدر ما هي ثورة جوهرها تثبيط ثنائية المثالية الغربية، رافعا من خلالها راية ما بعد الحداثة البنيوية المتمركزة على عدمية الصوت، والتي بها لا يمكن أن تتولد من الكتابة أي كينونة؛ لأنه يريد الولوج إلى لغة الاختلاف والتفكيك والانبثاق من الصمت، أو ما عرف عند المحدثين من العرب

بأنها انفجار السكون، فاتخذت الكتابة منطلقا لنقد مسيرة العلاقات النسبية وتهميش الدال والمدلول اللذان يعتبران الثنائية التي بنى عليهما دي سوسير رؤيته البنيوية لدور العلاقة وفعاليتها في بناء النص، فصارت اللغة بحسب تفكيكية دريدا وجدلية الكلام والكتابة عنده إلى نظام للآثار بعد أن كانت عند دي سوسير في بنيويته عبارة عن نظام للعلامات فتتولد المعاني وتبرز دلالاتها التفكيكية من منطلق اعتبار أن اللغة شكل من أشكال الاتصال، وأنه لا حقيقة خارج اللغة، " فالأسبقية عند دريدا تحفل بها الكتابة لا اللفظ، وأن الكتابة تخضع لهيمنة اللفظ مما يجعل التمركز المنطقي عنده مرادفا دقيقا للتمركز الصوتي". (ميجان الرويلي، وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، ص 109)

إن دريدا جعل من الكتابة الوعاء الأكبر الذي يضم الكلام واللغة معا، مستوعبة لهما، وإلى مثل هذا التوجه ذهب رامان سيلدن الذي أقر بحصر خصائص ومميزات الكتابة كما وصفها دريدا وأرادها بناءً على قيامها على الاختلاف ولا نهائية الدلالة، فكان حصره منصبا في نقاط ثلاث أجملها في الآتي:

"الأول: قابلية العلاقة المكتوبة للتكرار في غياب منتجها الذي أنتجها في سياق معين، وكذلك عند انتفاء حضور مخاطب محدد توجه إليه هذه الإشارة.

الثاني: إمكانية خروج العلامة المكتوبة عن إطار سياقها الفعلي، وإمكانية استنباتها في سياق مختلف لا يراعي بالضرورة القصدية لدى منتجها الأول.

الثالث: قبول العلامة المكتوبة للإبعاد، كونها مهيأة للانفصال عن غيرها من العلامات في سلسلة بعينها، وانتفاء إمكانيتها إلى أن تشير إلا إلى شيء ليس حاضرا فيها" (ينظر: رامان سيلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ص 137، 138)

تلك النقاط تلخصها فكرة البصلة المقشرة التي تستخدم غالبا مجازا عند وصف عملية النقد أو التحليل العميق للنصوص وكشف التناقضات والثغرات في المعاني المحتملة والتي طور مفهومها جاك دريدا في تفكيكيته التي تحيل كل قشرة منها إلى التي تليها في نمط تراتبي بنفس اللون والرائحة والأثر من خلال تقشير الطبقات السطحية وصولا إلى المخفي منها، فإن كل ما يقود إلى مثيله يعد منبوذا حسب هذه الفكرة.

كل ما تم الوقوف عنده آنفا يقودنا إلى انتفاء فكرة إمكانية مساواة الكلام مع الفكر معرفيا باعتبارهما تعبيران لغويان، ففي الكلام تكون الغلبة للسان اللغوي الناطق قبل التفكير العقلي اللغوي الناضج بالكتابة، وأما في الفكر يمكن التعبير عن الخلجات الفكرية فيما يعرف بالفكر الصامت المتأمل عن طريق المحاضرة بالتاريخ أو الفلسفة...، يترجم من خلالها المضمون الفكري الصامت.

انطلاقا من أن الكلام والكتابة هما نتاج عملية إدراكية واحدة، حيث إن آلية إنتاج

الكلام لسانيا هي آلية إنتاج الفكر الصامت عقليا الذي يمثل تخليقا ذهنيا ناضجا لا كلاما سطحيا عابرا؛ فالمشافهة الكلامية تلعب باللغة الارتجالية أكثر من تركيز الذهن المفكر الذي يكتب ويخط كتابة، وعلى السرد السابق فإنه ينتفي مطابقة ترجمة المشافهة الكلامية لنقولات كتابة الأفكار الصامتة.

إن الكتابة ليست عملية ميكانيكية تتفق فيها آلية تحويل الفكر اللغوي الصامت وآلية تحويل الكلام المنطوق، إنما هي شيء يتباين فيه اللسان الناطق شفاهيا والتعابير الفكرية بين ما هو لغة شفاهية وأخرى صامتة، فالتعبير الفكري يحتاج لغة تعبير مضمونها فكري صامت، بينما الكتابة الشفاهية تحتاج لغة ارتجالية تحاورية زائلة سواء ترجمت كتابة أو لم تترجم، كونه ليس معرفة لغوية ثابتة تحمل المطاولة والامتداد.

مع العلم بأن التعبير الفكري والكتابة الشفاهية ينبعان من الذهن وأن ترجمتهما الفعلية لا تخرج عن كونهما كتابة واحدة متفقة في الشكل متباينة في المضمون.

ففي الكلام يسبق اللسان اللغوي الناطق التفكير العقلي اللغوي الناضج بالكتابة، وكلاهما كان قبل الكتابة كلاما شفاهيا مسموعا.

ذهب دريدا ـــ كما أشرت ـــ إلى فضح قيم الحضارة المزيفة من توهم الميتافيزيقيا إمكانية إقامة صلة بين الكلام وبين الكتابة التي وصفت بجمود حروفها وقوالبها وقصورها عن الإجابة من دون حماية الأب وإسناده.

إن صراع الأفضلية بين الكلام والكتابة أفضى بجاك دريدا إلى توليد علم الكتابة ليقيم أسس التفكيكية في القراءة والتأويل، مستخدما التفكيك للدلالة على آلية قراءة النصوص ونفي حجتها بتملك الأساس الكافي في النظام اللغوي المستخدم لتثبت به بنيتها وترابطها محددة المعاني.

وقد استخدم دريدا عدة مصطلحات وسم بها طريقته ودافع بها في إثبات تلك الفكرة كالارتجال والتقويض والاختلاف ونقد التمركز والحضور والغياب وهوة النص...، وغيرها، غير متجاهل لدور القارئ الذي ملكه زمام الأمور في المنهج التفكيكي حين أقر به الأساس القائم الذي يفكك النص ويعيد بناءه وفق آليات تفكيره.

المعطيات النقدية لمشروع دريدا التفكيكي:

لم تخرج مخيلة دريدا عن دائرة التصور التفكيكي وهي تهدم تراكيب الكتابة مع غيرها من المستويات، فهي قراءة تستقوي على النصوص وتستجوبها أثناء عملية القراءة، فقدم دريدا مشروعه التفكيكي لتحقيق أهدافه وطموحاته من خلال النقاط التالية:

1ـــ الاختلاف: سمته غالبة من وسمه، دالة على عدم التشابه والمغايرة في الشكل والخاصة، فيقوم على تعارض الدلالات بين الحضور والغياب، فتوالد المعاني عند دريدا

لا يعرف الاستقرار ولا تنتهي فيه الدلالات في تيار الخطاب الأدبي، وهو ما يسميه دريدا بالكتابة البدائية، أي أن الكتابة شيء تم تصوره قبل تجربة الكتابة، فالاختلاف يوجد في اللغة ليكون أول الشروط لظهور المعنى، فيدفع بالقارئ إلى العيش داخل النص واصطياد موضوعية المعنى الغائبة وترويج المعنى الذي يخلق تعادلات مهمة بين صياغات الدوال والاطمئنان النسبي لاقتناص الدلالة، فتعسرت آلية تحديد ماهية اللفظ ودلالته وجعلت المتلقي في دوامة استحال انتشاله منها.

2ـــ نقد التمركز: الوسم يلوح براية التأمل الفلسفي المتعالي المتكبر على رواسب الحضارة العامد إلى تعريتها، إذ إن لكل تركيب تمركز إما لساني أو غير لساني، فلسفي أو غير فلسفي، وقوة التمركز تعطي أهمية لحركة الدوال كونها ـــ حسب دريدا ـــ العنصر الفيصل من التركيب النصي، إذ لا ينوب عنه شيء آخر، فالتمركز مفتعل يضفي المركزية على من هو ليس بمركز ـــ لأن المركز شيء إيجابي لحركة الدلالة والمعنى ـــ فذم دريدا التمركز لدلالته السلبية ومدح المركز كونه مصدر إشعاع للدلالة.

3ـــ القراءة أو نظرية اللعب: وهو نهج عربي قديم يتيح للقارئ أن يكون مشاركا نشطا في عملية القراءة والتفسير، ويتضمن عدة جوانب كاللعب باللغة كما في الاستعارات والكنايات والمجازات ـ كما تم الإشارة ـ بطرق مبتكرة لإيصال المعاني وتأثر القارئ بها، ومنها أيضا: اللعب بالمعاني وتعددها بمستويات مختلفة من الفهم وهو ما ينشط دور القارئ في تفسير النصوص واستكشاف المعاني الخفية...، وفي كل منهما إشارة إلى تمجيد التفكيكية للنسق اللامتناهي للكتابة، إذ ليست منقطعة عن الإكراهات المغيبة للحقيقة وأثر المعطى الثقافي للفكر والإدراك والاستناد إلى أوسع أبواب الأفق في المرجعيات الفكرية المماثلة والفلسفية المعقدة وطرق التحليل المحددة.

فالنص بعيد كل البعد ـــ حسب دريدا ـــ عن التباينات والاضطرابات وعوارض التشتيت؛ لأن القراءة التفكيكية تفجر المعنى وتشظي الهوية من خلال تقليلها من أهمية أية إحالة واثقة على منظومات الأخلاق والحكم الجمالي، ولم تخرج عن كونها كلمات مفرغة من الدلالات الثابتة واليقينية ومليئة بالشعارات الزائفة.

4ـــ علم الكتابة: يقوم على نقد ثنائية دي سوسير (الدال والمدلول) من خلال النظر في فاعلية العلامة ودورها في بناء النص، فالدال في بنيوية دي سوسير تمثل تشكلا سمعيا وبصريا وصورة حاملة للصوت، وهذا ما عدّه دريدا تمركزا حول الصوت وصورة وهمية حاملة للمعنى، فعمد دريدا إلى وسم العلامة بوسم الأثر فتحولت اللغة الدي سوسيرية من نظام ذا علامات إلى نظام ذا أثر ـــ كما أرادها دريدا ـــ وهذه الآثار تؤكد مفهوم الكتابة وتضفي نشاطا لدوال هذه الآثار باختلاف معانيها، حتى إن دريدا رأى في

علم الكتابة أنه لا يمكن أن يكون إلا علما للاختلافات.

5ـــ الحضور والغياب: وهي دعوة إلى نحو الكلام لا نحو اللغة، إن الكلام" تحقيق فعلي حي لتلك الصورة المختزلة في ذهن الجماعة، وهذا الكلام مجاله أرحب وأوسع من مجال اللغة؛ فحيث تختزن اللغة في الذهن بعلاقة تجريدية، يبدو الكلام أمرا مركبا يحتاج على الأقل إلى متكلم ومتلق ومشهد وموقف خاص وزمان ومكان ودلالات تكون مقصودة أو مرتجلة، بمعنى آخر: هو مسرح وإيقاع حياة " (د. أحمد كشك ـ اللغة والكلام ـ 10)

إن درب التفكيك النقدي يخضع لحضور الدوال وتغييب المدلول، حتى إن التمعن في المعطيات: (علم الكتابة، القراءة أو نظرية اللعب، نقد التمركز، الاختلاف) يتجلى فيها ثنائية الحضور والغياب من خلال توجه الخطاب الفلسفي الغربي وتهديم ثوابته وكشف تناقضاته والانجرار به من السمت المعرفي (ميتافيزيقيا الحضور) ـــ حسب رأي دريدا ـــ إلى غياب المعنى وتعدده واختلافه، فالتفكيكية تغيب المعنى كونه غير مستقر وغير محدد؛ لأن النزعة الإنسانية فيها متلاشية في أطر التحليل المعاصر النقدي والفلسفي والاجتماعي...، وتنوع البيئات المعرفية الغارقة في المذاهب والتيارات المتجددة فكريا وغرائزيا ومعرفيا وصولا إلى تظاهرات فكرية منهجية ونظرية تقود إلى التحول والتناحر بين النصوص.

الخاتمـــــة:

يقوم عمل جاك دريدا في إرساء نظرته المنهجية وتطبيقها على عدة أمور تمثل في مضمونها الدرب الفكري الذي اعتمده كونها منهج أدبي نقدي ومذهب فلسفي معاصران يتجهان إلى القول باستحالة الوصول إلى فهم متكامل أو على الأقل متماسك للنص أيا كان، متمثلا في الآتي:

ـ عمله قائم على التشكيك في جميع القدرات، حتى إنه تنكر للمسلمات العقلية والبديهيات الإنسانية، وتبلغ درجة شكوكيته من شكوكية ديكارت التي تظل قلقة وبائسة عند مرحلة الانبهار العقلي بالوجود.

ـ لا يسعى دريدا إلى إيجاد منهج علمي محدد وجديد.

ـ يقوم عمل دريدا على غياب الأصل وانعدام المركز، الأمر الذي يجعل الناظرين لها بأنهم يجزمون بانتفاء الفلسفة منها وحصرها في باب التفكير المنطقي العائم في فراغ عقلي مطلق.

ـ أجهد نفسه في انتقاء الأشلاء النصوصية بعد تشريح جثة الخطاب الفلسفي الإنساني من أفلاطون إلى الآن، لينتج عنها خليط فلسفي غير متجانس إلى مستوى اكتساب أية

هوية منهجية محددة المعالم.

التوصيات:

ما تنفك تتضح معالم توجه فكري ونقدي حتى تهرع أخرى إلى الظهور على حساب سابقاتها، الأمر الذي يلزم أهل الحرفة مبدعين ونقاد إلى أن تتحدد مسارات اتباعهم حسب قدرات ابتداعهم من حيث الاستقدار على الصنعة أو الاستثقال للسائد من المناهج والنظريات والتوجهات الأدبية والنقدية المغمورة وأرادوا بطريقة أو أخرى أن تكون مطمورة...

وعلى ذلك المبدأ لزمنا كعرب استثقال ما ثقل على القريحة السليمة ونبذه والاحتفاء بما له جذر ذا قاعدة سليمة وقريحة نقية، حتى لا نقع في شرك البيئة العباسية التي غلبت عليها صبغة المولدين فكثر اللغط حول نتاجها بين مؤيد وثائر...، يغمرنا مبدأ الحيادية فلا نرد القديم لقدمه ولا ننبهر بالجديد لجدته إلا ما طابق السليقة النقية، عامدين ــ كلٌّ يعمل ضمن مجال تخصصه بين أديب وناقد ومتلقٍ ــ إلى توجيه العقول وتنوير الأفهام.

ثم مواكبة ركب الحضارة بما يرفد أرفف المكتبة العربية بمصنفات تجاري أمهات الكتب من حيث المحتوى المتفق عليه في جل محتواه ومسائله، متجاوزة جدلية الالتقاء والافتراق بين دخيل مفروض وأصيل منبوذ.

المصادر والمراجع:

- د. أحمد كشك، اللغة والكلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1995م.
- بسام قطوس، استراتيجيات القراءة ـــ التأصيل والإجراء النقدي ـــ، دار الكندي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م.
- جاك دريدا، في علم الكتابة، ترجمة: غياتري تشابر افورتي سبيفاك ـــ بلتيمور ولندن، مطبعة جامعة جون هوبكنز، 1972م.
- رامان سيلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ت: جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م.
- سيلفان أورو ـ جاك ديشان ـ جمال كولوغلي، فلسفة اللغة، ترجمة: د. بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2012م
- عبد الله إبراهيم، علم الكتابة، جريدة الرياض، ع: 14647، 13 يوليو 2008م، جريدة يومية تصدر عن مؤسسة اليمامة الصحفية، السعودية.
- د. محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة: دراسة ومعجم انجليزي عربي، الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان، 1997م.
- ميجان الرويلي، وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، 2002م.